



ملاح الخطاب الصوفي في ديوان (أبجدية الروح)

Sufi Discourse in the Poetry Collection Abjadiyyat al-Rūḥ (Alphabet of the Soul)

د. عصام واصل

Dr. Esam Wasel

قسم اللغة العربية- كلية الآداب- جامعة ذمار (الجمهورية اليمنية)

esam_wasel@tu.edu.ye

تاريخ النشر: 2026/01/15

تاريخ القبول: 2025/12/25

تاريخ الإيداع: 2025/11/09

ملخص:

يهدف البحث إلى استكشاف الملاح الصوفية وأبعادها الدلالية في ديوان (أبجدية الروح) للشاعر اليمني الراحل عبدالعزيز المقالح، الذي جعل من التصوف أداة للمكاشفة واستقراء الواقع المنكوب بالحروب والمآسي، والبحث عن الاكتمال والاستقرار ونيل الجسد باعتباره أداة لعزل الإنسان عن السكينة والطمأنينة، وقد تم تقسيم البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث هي: العنوان باعتباره فضاءات للتخييل الصوفي، والصراع بين الذات وعالمها المادي، والموت باعتباره وسيلة للقاء الله، والرموز الصوفية بوصفها معادلاً موضوعياً؛ واستعمل البحث المنهج السيميائي للاستعانة باستكشاف شكل المعنى، وتوصل إلى أن الخطاب الصوفي يهيمن على المتن المدروس أفقياً وعمودياً، وينطلق من العنوان الخارجي مروراً بالعناوين الداخلية، واستقراراً في النصوص، وهو ما يمنحها بعداً شفيفاً يقف على عتبات الروح، ليشعل فيها رغبة البحث والاستكشاف النصيين، ويدفعها إلى العودة صوب الداخل بوصفه مقام استقرار وطمأنينة، والتفقت من إसार الخارج بوصفه مقام قلق وشك وتيه واغتراب طويل. وقد كان الصراع بين الجسد والروح صراعاً بين النقص والكمال، وصراعاً بين الفاني والمستمر، وبحثاً عن السكينة والاستقرار، وقد عضد ذلك استعمال المدونة للموت بوصفه رمزاً للانتقال إلى عالم الحقيقة المطلقة، وكذلك استعمالها للرموز الشخصية والمكانية التي أسهمت في تعزيز الرؤية الصوفية في الديوان وكشفت عن البعد الكلي له.

الكلمات المفتاحية: الشعر اليمني المعاصر، الخطاب الصوفي، تحليل الخطاب، الزهد، الرمز والقناع.

Abstract

The paper aims to explore the Sufi features and their semantic dimensions in Abjadiyyat al-Rūḥ (Alphabet of the Soul), a poetry collection by the late Yemeni poet 'Abd al-'Azīz al-Maqālīh. The poet employs Sufism as a means of revelation and contemplation of a reality devastated by wars and tragedies, in pursuit of spiritual fulfillment, stability, and transcendence of the body as a barrier separating humanity from serenity and inner peace. The paper is divided into an introduction and four sections: titling as a space for Sufi imagination; the conflict between the self and the material world; death as a means of union with the Divine; and Sufi symbols as objective correlatives. Adopting a semiotic approach, the study investigates how meaning is constructed and revealed. The findings indicate that Sufi discourse pervades the poetic text both horizontally and vertically, from the external title through the internal headings and within the



poems themselves, endowing the collection with a delicate spiritual depth. This depth invites the reader into an introspective journey toward the inner self as a locus of tranquility and stability, and away from the outer world, portrayed as a domain of anxiety, doubt, and alienation. The tension between body and spirit emerges as a struggle between deficiency and perfection, mortality and continuity, in the quest for peace and equilibrium. Moreover, the recurrent use of death as a symbol of transition to the realm of absolute truth, along with the employment of personal and spatial symbols, reinforces the Sufi vision of the collection and reveals its holistic spiritual dimension.

Keywords: Modern Yemeni poetry, Sufi discourse, discourse analysis, asceticism, symbol and mask.

مقدمة:

ما يزال الشعر اليمني -برغم كثرة الدراسات حوله- بحاجة إلى فتح آفاق كثيرة للولوج إلى محتوياته المعرفية، إذ ما يزال معظمه بحاجة إلى دراسات مضاعفة، متجددة تواكب آليات النقد السيالة، والمتجددة، فموضوعاته ما تزال بكرة إلى حد بعيد، ومداخل دراساته ما تزال كثيرة ومتشعبة، ولم يتمكن الباحثون من الإحاطة بها بالشكل الكافي، فتداولياً -مثلاً- ما يزال المتن الشعري بكرة، وثقافياً وسيميائياً كذلك، إذ إن أنساقه المضمرة ما تزال مشفرة وبحاجة إلى تفكيك وسبر، وأشكال معانيه ما تزال بحاجة إلى استكشاف سيميائي مكثف.

ومن أبرز المتون الشعرية التي دُرست كثيراً -وبرغم ذلك- ما تزال بحاجة إلى دراسات متجددة أيضاً- تأتي مدونة الشاعر اليمني الراحل عبدالعزيز المقالح، التي كانت وما تزال مدونة سهلة ممتعة، متسعة ممتدة وإن ظن القارئ أنه قد أحاط بها، وهي المدونة التي جمعت أدوات الحداثة ومضامينها، إذ اشتغل فيها المقالح على الشكل المختلف الذي يجمع أشكالاً في سياق نصي واحد، كما هو الحال في قصيدة (هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي....)⁽¹⁾ التي جمع فيها المنثور بالمدور والحر⁽²⁾، وهو جمع لعله ناتج عن إحساس عميق بعدم قدرة الشكل الواحد على تلبية الإحساس بوطأة التجربة المعطاة في النص، إذ هي ذات طابع محلي للوهلة الأولى، لكنه المحلي المثقل بالقومي والإنساني كذلك، يعالج فيه تمهاً ظل لصيقاً ببيئته منذ البدء حتى المنتهى (التغريبة)، فضلاً عن الانتكاسات السياسية المتلاحقة التي مني بها برغم محاولاته المستمرة التثبيت بالحياة والخروج من عباءة الموت السريري القائم.

فضلاً عن اشتغال المقالح فيها على المضامين المختلفة أيضاً، وهي مضامين ليست لصيقة بالذات الغنائية المفرطة، أو المتوقعة حول الذات، بل كانت مضامين تعالج الهم الجمعي، وتسعى إلى إثبات إمكانية الخروج من قمقم الموت السريري الذي يحيط بالمشهد والواقع نفسه.

ومن بين مدونات المقالح التي سعى فيها نحو خلق عوالم جديدة ولغة شعرية مختلفة، يأتي ديوانه (أبجدية الروح)، الذي لم يكن مجرد ديوان عابر في مسيرته الإبداعية فحسب، بل إنه مثل نقطة تحول كبيرة بين ما قبله



وما بعده، إذ يمكن اعتباره عتبة تحول نحو المختلف عما جاء قبله، وممهّدًا للمغاير الذي تلاه. فهو ديوان قائم على الحس الصوفي المختلف والمفارق لما هو مطروح في الخطاب الشعري القائم على البعد الصوفي في نتاج مجايله أو حتى نتاج من سبقوه؛ لأنه قائم على البعد الحجاجي تارة⁽³⁾، والبعد الإنساني المفرط في إنسانيته التي يحاول فيه رثاء أصدقائه تارة أخرى، أو تقديم وصف طبوغرافي لأحياء جغرافية مغلقة في المعنى الصوفي والتجربة الصوفية كذلك.

ولعل هذا الديوان ناتج عن إحساسه المفرط بعدمية الواقع الذي ظل يكتب عنه ويتشاجر شعريًا معه وبه وفيه، لذلك جاء موحياً للوهلة المبسطة الأولية بالنزوع الرومانسي القائم على النكوص نحو الطبيعة والتفلت من قبضة المدني المفرط في حواجزه القائمة على فصل الإنساني عن الإنسان، والاغتراب، والألم المضاعف الناتج عن ذلك. إنه ديوان مفارق لذلك، قائم على التجديد والخلق والتجاوز.

تسعى هذه الدراسة إلى استكشاف الملامح الصوفية الكامنة في هذه المدونة، ومعرفة أبعادها، وأهدافها، ومن ثم القبض على عناصر شعريتها التي خلقتها وجعلتها تبدو على ما هي عليه، فضلاً عن محاولة القبض على شكل المعنى المتمفصل فيها.

وينطلق ذلك كله من إيمانه بأن التصوف يرتبط بجملة من الدلالات، تجتمع كلها عند نقطة واحدة هي نزوع المتصوف نحو نبذ العالم المادي واستبداله بالزهد، وصراعه مع كل ما يفصله عن كل ما هو روعي، إنه عودة إلى داخل الذات (الروح) الدال على النقاء باعتباره بديلاً عن الخارج المدنس (الجسد)، من أجل الوصول إلى الكمال.

نجد ملامح صوفية كثيرة في الخطاب الإبداعي العربي منذ القديم وحتى يومنا هذا، وهي ملامح تسم الأعمال الإبداعية بالروحانية والسمو وتكشف عن الحالة الاجتماعية والفكرية لكل مشتغل عليها في تلك النصوص، ومع أن التجربة الصوفية في الأدب العربي قد نُمِطت فيما مضى، بعد أن حاول كثيرون تقعيدها وقولبتها وحصرها في الغزل والحب الإلهي بوساطة الترميز برموز بعيدة كل البعد عن الصوفية باعتبارها جوهر نقاء وقداسة، منها الخمرة وتأنيث المعشوق المذكر والعكس، حتى كاد معظم الدراسات للتجربة الصوفية في الشعر، والإبداع بشكل عام، تنحصر في هذه الرموز والأنماط، وهو ما يتنافى مع جوهرها باعتبارها تجربة أكثر اتساعاً وتمددًا وإيهاماً من ذلك خصوصاً في الشعر المعاصر، وفي ديوان أبجدية الروح بشكل أخص؛ لأن الأدب بشكل عام والشعر منه بشكل خاص يستدعي التجربة الصوفية بوصفها أداة لخلق توازن بين عالمي الروح والمادة كما نلمح في شعر "المقالح" منذ بداياته الأولى، غير أن ذلك يغدو مهميماً في كل مفاصل ديوانه الموسوم بـ"أبجدية الروح" الذي يشتغل على التصوف منذ عنوانه الخارجي الذي يسمه بالأبجدية الروحية، مروراً بعناوينه الداخلية والمتن الذي يمثل لوحة صوفية مكتملة.



إنه يسعى في مجموع إبداعه إلى إعادة النظر في الذات وعلاقتها بالعالم انطلاقاً من استحضاره للفكر الصوفي واشتغاله على قاعدته المنهجية والروحية، ويعيد النظر في فكرة التصوف ذاتها التي ارتبطت بالكثير من أقطاب الصوفية باعتبارها وسيلة نجاة فردية للقطب ذاته؛ لتغدو لدى المقالح وسيلة نجاة جماعية للمجتمع ككل، وتصبح في ديوانه الموسوم بـ "أبجدية الروح"⁽⁴⁾ تصوفا ذا علاقة وشيجة بقضيته التي يعالجها؛ إذ يُلبسُه لبوساً خاضعاً لما تعاني منه الذات المتمفصلة في البنى الشعرية ويعيشه مجتمعة ككل، فلا نجد ظاهرة التغني بالرموز الصوفية الجاهزة والمتعارف عليها في التجربة الشعرية الكلاسيكية كالخمرة والغزل المعكوس... إلخ، بل نجدها تتجلى في صيغة صراع مع التحولات التي مست المفاهيم وكثفت تعقيدات الحياة، وفصلت المجتمع عن الفرد والفرد عن المجتمع، وفي صيغة مكاشفة تسعى إلى إعادة النظر في كل ما يسعى إلى تهديد الإنسانية ويصيبها في ذاتها ويخدش جمالياتها.

وقد اتخذ البحث من المنهج السيميائي في طابعه الباريسي أداة للدراسة، لكن بصيغة غير مغرقة في تفاصيله، بل باعتبار بعض أدواته مساعدة للتفسير والتحليل والقبض على شكل المعنى.

وجدت هذه القراءة، بعد تأمل، أن المهيمن على الديوان في خطابه الصوفي تيمات أربع، هي: الرؤى الصوفية على صعيد العنونة وإيغالها في التخيل، وكذا الصراع الإنساني بين الذات وعالمها المادي، والموت باعتباره مخلصاً، واستحضار الرموز الصوفية (شخصيات وأمكنة ومفاهيم). وهو ما ستضطلع الدراسة بالكشف عن كيفيات تشكلاته وأبعاد دلالاته.

المبحث الأول: العنونة باعتبارها فضاءات للتخيل الصوفي

لم يعد العنوان مجرد مدخل للنص فحسب، بل صار أداة من أدوات قراءته ولفت انتباه القارئ إلى ما فيه من مكونات ودلالات، ولو بشكل رمزي أو جزئي⁽⁵⁾، فهو واحد من مجموع العتبات التي يتموقع وجودها في المتن⁽⁶⁾. إنه أول ما تقع عليه عين القارئ نصياً، سواء أكان عنواناً كلياً للمتن أو عنواناً لعنصر جزئي منه (قصيدة مثلاً)، كما أن بعض الدراسات تشير إلى كونه من أهم العتبات النصية⁽⁷⁾. وهي إشارة وإن كانت تنطوي على شيء من المبالغة، فذلك ناتج عن كون العنوان متصدراً دوماً، ويمثل المفتاح الجوهرى للنص أحياناً، على عكس العتبات البصرية مثلاً على أهميتها، ذلك أن العتبات النصية تعني أنها مجموعة من الأصوات، والصوت له وقعه على السمع، لاسيما حينما يكون قائماً على الانزياح والخروج على المألوف وهو ما سنراه في عنوان هذا الديوان.

يعد العنوان في هذا الديوان أول نافذة تفتح آفاق التخيل وتشعره على عوالم صوفية تتوق إلى الدمج بين المعرفي (أبجدية) والعرفاني (الروح)، وهو توق الصوفي/الشاعر إلى ابتكار أبجدية ثانية تسعى إلى التفلت من الواقع المثقل بالوحشة والخراب والانفصال عن مواضيع القيمة، والانتقال من اللغة المعهودة، باعتبارها لغة



صماء لا توفر المأمول من وجهة نظر الصوفي، إلى لغة غير مألوفة؛ لأن اللغة المألوفة التي يصفها ضمناً بـ (أبجدية الجسد)، بإلزاميتها وسطوتها ومحدوديتها وانغلاقها؛ لا يمكن الخلاص من سطوتها إلا بالاستغراق الصوفي والاستبدال والانزياح عن كينونتها، وهذا ما يجعل البحث عن أبجدية ثانية هاجساً مشروعاً كان قد خبره وعانى منه المتصوفة واصطدموا به⁽⁸⁾، وقد حاول المقالح الانزياح بها من لغة للجسد (دنيوية) إلى لغة للروح باعتبارها وسيلة معرفة تسعى إلى بلوغ الغاية والنفاد إلى جوهر الأشياء والعالم.

وإذا كان العنوان قائماً على هذه المفارقة فإن المتن برمته سيتناسل من هذين الدالين (المعرفي والعرفاني)، وليست مبالغة إن قلنا إن المتن كله يقوم على هذين المحورين باعتبارهما حقلين دلاليين يعمدان إلى تشكيل المتن بنائياً وفنياً، وهما من جهة أخرى يعكسان مفهوم الصوفية بما هي أداة لهتك أستار الحجب ومحاولة التعرف على الجانب الخفي من العالم والبحث عن المعنى الكلي له ولمسعى علاقة الذات به وبالله والآخر.

كما أن هذا العنوان يمهد لتشكيل العنونة الداخلية بنائياً وسيميائياً، ونلمح ذلك من السمة البارزة في تشكيل معظمها وهي دورانها في الفلك الصوفي باعتباره حقلاً دلالياً تتحرك فيه الأبعاد الدلالية بطريقة تعضد الرؤية الفنية التي يرسمها المتن، وتشكل خطأً صوفياً واحداً تتوالد منه وعبره جملة من الرؤى العرفانية التي تأخذ شكل المعادل الموضوعي للتناقضات والمفارقات المولدة لدورة الحياة في مستوييها: التجريدي والتجريبي⁽⁹⁾، على نحو: فاتحة، ابتهاجات، رؤيا، قصيدة حب للسماء، اشتعالات، مفاتيح إلى ثُكُنَاتِ الروح، في الطريق إلى يفرس، من مواقف سفیان الصنعاني، موقف الضحك، موقف البكاء، موقف الجسد، موقف الروح، ذهول، في يفرس، اكتمالات أحمد، أغنية للروح، بالقرب من نخلة الله، أسئلة، مرايا الضوء...، إنها تشكل مساراً صورياً يتعدد في البدء (لغويا) ليتحد في المنتهى (سيميائياً)، وهو التأمل والمناجاة والوجد والارتقاء، والرحيل نحو المقدس، أو إلى أماكن وشخصيات صوفية ارتبطت روحياً به (يفرس، سفیان الصنعاني)، أو استحضار النفري إيحائياً بواسطة استحضار ما عرف به في مسيرته الصوفية كلها (المواقف) والتخلص من غواية الجسد، والبحث عما ينير ظلمات الروح، والكشف، والقلق، والتساؤل، وهي كلها تجتمع في محور واحد هو التصوف باعتباره بحثاً عن الخلاص.

إن العنونة بناء على ذلك جزء من الرؤية العامة التي يقدمها المتن وينبني عليها رؤية وأداة ورؤيا، كما أنها تمهد للدخول في عوالمه الصوفية وخباياه الدلالية؛ إنها تعضد رؤية الذات الشاعرة من جهة، ورؤية الديوان كله من جهة ثانية، وتسير معه نحو خلق المعنى الكلي للمتن الصوفي القائم على الخلق والتجديد والمغايرة، فهو يسعى إلى خلق لغة للروح من أجل محاولة القبض على واقع متجرد من الجسد باعتباره الصوفية المركبة، ويرسم مسارين: الأول نقيض للثاني ومخالف له، ويوحى كل منهما بصراعه المستمر مع الثاني من أجل انتصاره عليه؛ ليجسد مجموع القيم الإنسانية القائمة على الروح أولاً وأخيراً؛ إنه صراع بين الذات وعالمها المادي المفرط في ماديته التي تلغي الوجدان والحدس وشعور القلب.



المبحث الثاني: الصراع بين الذات وعالمها المادي

تُعرّف الصوفية بنزوعها صوب نبذ النزعة العقلية الصرفة التي تجعل من العالم كونًا عمليًا بحثًا يفتقد إلى الوجدان، وكذا باقتراحها من العالم الروحي انطلاقًا من التمسك بشعور القلب والحدس العرفاني والوجداني من أجل وصول العارف أو المتصوف إلى غايته، وهي نزعة تقوم -في ديوان "أبجدية الروح"- على الاتكاء على النقاء، والبساطة، مقابل التعقيد الذي تفرضه سلطة الأشياء المادية، وكذا تحسس العالم بالروح بدلًا من حواس الجسد، وتتجلى هذه النزعة منذ العنوان الخارجي للديوان، الذي يحدد السمة الأولى للمتن وهويته النهائية باعتباره صراعًا بين الروح والجسد ينفي ثانيهما (الجسد) انتصارًا للأول (الروح)، مع أن دال الروح يبطن دال الجسد؛ لأنهما متلازمان في الفكر الصوفي، فلا يكاد يظهر أحدهما بمعزل عن الآخر فإذا ذكر أحدهما يذكر معه الآخر ضدًا؛ ليجسد الصراع الذي يعيشه الصوفي بين عالمه الطيني المدنس، وعالمه الروحي المقدس؛ فهو ينتصر بالأولى على الأخرى؛ لذلك فإن الديوان يجسد حالة الانتصار على الجسد بعزله عن داله الآخر، ويعتمد إلى دفن ما يهيج الجسد ويمنحه جسديته (النفس)، يقول الشاعر:

«كنتُ أبصرها
كنتُ أبصر نفسي مكتظةً بالخطايا
محاصرةً بذبابٍ من الإثم
حاولتُ إغراءها بالخروج من الجسم
أمعنتُ في صدها
فاستفزتُ بقايا الأفاعي بصدري
.....

أه ما كان أبعد ما بيننا
غير أنني اعتذرتُ لها
واعتزلتُ الزحام
خلعتُ حذاء الهزيمة والصبر
أثمن ما ادخرته السنون العجاف
ارتفعتُ... أنا
ثم واريتهما،

ولمحتُ بقايا شرارتها في ارتعاش العظام»⁽¹⁰⁾.



تبدو ذروة الصراع في محاولة الذات القضاء على جوهر الجسد ودافعه المحوري (النفس)، بوصفها المحرك الرئيسي للجسد، فلولاها لما كان للجسد أي معنى ولا أي وظيفة، إن النفس كما يقول المتصوفة "ظلمانية" سيئة المعاملة، وروحها في الأصل نورانية، ولا تزداد صلاحاً إلا بمخالفة العبد هواها والإعراض عنها وقهرها؛ لأنها تدخل في الصدر بوسوستها وأباطيل أمانها ابتلاءً⁽¹¹⁾؛ ولعلها نظرة مستقدمة من قوله تعالى: (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)) [يوسف: 53]، إذ هي دوماً ما تأمر الإنسان بتنفيذ ما يهواه وينزع إليه من نوازع قائمة على الخطايا⁽¹²⁾، إذ الهوى كثيراً ما يكون معبراً عن ميل النفس نحو النوازع المختلفة وغير المنضبطة⁽¹³⁾، وهو نزوع لا يتوافق مع رؤية الصوفي ورؤيته إلى الحياة والعوالم المحيطة بها.

يتسع نطاق الصراع مع الجسد ومكوناته ليبلغ مستوى أكثر عمقاً في نص «ابتهالات»، الذي يفيض بالمناجاة ووسائل التجرد. إذ يسعى الشاعر إلى نفي حضور الجسد واستبداله بالروح، فيقضي حاسة اللمس ويحل محلها إدراكاً روحانياً خالصاً، كما يتجلى في قوله:

«إلهي
أنا شاعر
يتحسس بالروح عالمه
يكره اللمس
عيناه مقفلتان»⁽¹⁴⁾.

إن فعل تحسس عالم الذات ينسجم مع عالم الروح الذي يمثل، هنا، أداة التحسس، وإقفال العينين ينسجم مع واقع الانفصال عن العالم وحاسة اللمس، وكأنه التوق العميق إلى الانكفاء على الروح باعتباره عالماً للسلام، والانفصال عن الواقع الخارجي باعتباره عالم حرب ودمار بوصفهما آلة فصل للإنسان عن سياقه الروحي والنزج به في ظلمات شئون دنيوية لا طائل منها سوى اتساع دائرة التيه، فالحرب وسيلة لفصل الإنسان عن الروحي، وفصل الحياة عن العالم النوراني، إنه رفض للعالم المادي الفاقد لقيم الإيمان:

«كرهتني الحروب
لأني بالحسرات وبالخوف أثقلت كاهلها
ونجحت بتحريض كل الزهور
وكل العصافير
أن تكره الحرب
أن ترفض الموت يأتي به موسم للحصاد الرهيب
ولكنها الحرب يا سيدي أطفأتني



وأطفأت اللوحات المدلاة في الأفق أقصت عن الأرض نور السموات واحتكرت ملكوت الجحيم»⁽¹⁵⁾.

إن صراع الذات مع العالم المليء بالتناقضات والكثافة المادية (الحرب) يدفعها إلى اللوذ بالشكوى ومناجاة الذات الإلهية، والاستنجاد بها بوصفها مُخْلِصًا بعد أن فرضت المادة القطيعة بين الأرض والسماء واستبدلتها بالجحيم، لذلك جاء الملفوظ أعلاه مؤكدًا على أن الحرب لم تعد أداة صماء يقوم بها الإنسان وكفى، بل بوصفها أداة لها مشاعرها، فهي تكره الإنسان لاستمراره فيها، وإيغاله فيها وبها، فضلًا عن أنها قد أطفأت الذات الشاعرة باعتبارها رمزًا للإنسان المنهك من عالم الحرب المجنون.

إن الصراع بين الروح والجسد ليس صراعًا عابرًا، بل هو صراع بين القيمة العليا والقيمة الدنيا التي تسعى إلى كسر الإنسان، وكبح جماح حريته وطمأنينته وسكونه، وهو ما يؤكد نزوع هذه المدونة نحو التصوف باعتباره رمزًا للسلام والمحبة والخروج عن دائرة التيه والظلام وملكوت الجحيم.

المبحث الثالث: الموت باعتباره وسيلة للقاء الله

كان للموت بأبعاده الصوفية حضور بارز في ديوان أبجدية الروح، وهو حضور يعزز مشروعيتها من البعد الكلي للنظرة الصوفية نفسها، وهي نظرة تسعى إلى الكمال، وانتصار الروح على الجسد -كما أشرنا-، والامتلاك الكلي للنقاء والكمال، على اعتبار أن الموت -صوفيًا- أداة للخروج من الجسد الوعاء الذي يمثل رمزًا للمادة المطلقة التي تهيم على الروح، كما أنه أداة لاكتمال الذات أيضًا.

ينظر الصوفي إلى الموت على اعتبار أنه طريق إلى الحياة الأبدية، ووسيلة عبور للالتقاء بالذات الإلهية، إنه وسيلة للانتقال من العالم الفاني الذي تنفصل فيه الذات عن الخالق إلى العالم "اللافاني" الذي تلتقي فيه الذات بالإلّهِ ولا تبتعد عنه. وبعبارة أخرى إنه إطلاق من قيد الجسد والأكوان والاندراج في المطلق والرحمن، وطريق إلى الحق، ووسيلة تفريق بين الروح والجسد⁽¹⁶⁾، وهو ما يعبر عنه وبه المقالح في نص "فصول من كتاب الموت":

«وسوى الموت لا يجمعُ الله والناسَ
في شرفَةٍ واحدة»⁽¹⁷⁾.

وهي القاعدة التي تتجلى في نص «اكتمالات أحمد» حينما تلتقي الذات محور النص (أحمد) بالله عن طريق الموت، أو حينما تتوق إلى لقاءه الذات المتلفظة داخل النص أيضًا، حيث تتجلى بنية التحول الشكلي والجوهري



للذات محور النص، فيكتمل بالموت، ويصير إنساناً بهياً، ويخرج الكون ومكوناته من بين حدقاته تارة ومن بين أكفانه تارة أخرى:

«بالموت يكتمل الفتى ويصير إنساناً بهياً
حالمًا تنداح من حدقاته الحقائق،
والهضاب الفاتنات
تطل من أكفانه سحبٌ وأشرعةٌ
وبحرٌ أزرقُ الرايات»⁽¹⁸⁾.

ويظل التوق لدى الذات المتلفظة (الذات الشاعرة/الساردة) في النص متتابعًا؛ إذ تتوق إلى التحول والانفصال عن الحياة والاتصال بالموت ابتغاءً للاكتمال، ويتجلى ذلك عبر ملفوظ مناجاة مع الموت ينم عن شوق كبير من قبل الذات التي تظل تلج على فكرة التحول نحو الاكتمال وهو جوهر الصوفي؛ إذ بالموت يتم الاكتمال والاتصال، على عكس جوهر الدنيوي الذي يرى في الموت انفصالاً عن الحياة.. فنجد:

«يا أيها الموتُ الجميلُ
لمحتُ وجهك ناصعًا خلفَ التلالِ الهارباتِ من الضبابِ
سمعتُ صوتك،
في حديثِ الراعياتِ، وعبرِ شباباتِ وادي الزعفرانِ
قرأتُ أشعارًا لموتى استقبلوكَ وقد تماهى وجدهم بالشوق نحو الله
فاكتملتُ قصائدَهُمْ
كما اكتملَ الفتى»⁽¹⁹⁾.

وحينما يشتد توقه إلى الموت/المخلص يطلب منه تحويط الأكوان بالأكفان وغسلها بريحان البداية، ابتغاء العودة إلى الجذور والبراءة والعودة إلى حيث نقطة البدء المتمثلة بما قبل الخلق وما قبل الخروج إلى الحياة.

إن الموت في الديوان لا يأتي لوصف الموت ذاته أو وصف حدوثه بشكل مجرد وعابر ومألوف، بل باعتباره كائناً جميلاً (يا أيها الموت الجميل)، وبوصفه محطة انتقال من الدنيوي الفاني إلى الأخروي المستمر القائم على الكمال والجمال في ذاته أو فيما يؤديه من وظيفة (الكمال)، وهو على عكس ما يأتي في المدونات الشعرية أو في الثقافي العام محملاً بالنوح والخوف والرعب والفرع.

المبحث الرابع: الرموز الصوفية بوصفها معادلاً موضوعياً



تعد الرموز الصوفية من أهم وسائل التخصيب النصي والانفتاح على العالم في المدونة الشعرية العربية، وتأتي على أشكال متعددة منها رموز الأماكن ورموز الشخصيات ورموز المفردات (المصطلحات والمفاهيم الصوفية)... وقد تجلّى ذلك في ديوان أبجدية الروح عبر مجموعة من الشخصيات والأماكن، والعبارات والمفاهيم (هذه الأخيرة لن نتناولها هنا)، فمن الشخصيات: "فريد الدين العطار"، و"سفيان الصنعاني"، و"غيلان الدمشقي"، ومن الرموز المكانية المهيمنة: "يفرس"...

أ- رموز الشخصيات/الرمزقناعا

سنكتفي هنا باستكشاف الرمز المقنع في نص "مقامات سفيان الصنعاني"، الذي يتخذ فيه الشاعر من الزاهد "سفيان الثوري" (*) قناعاً، يتماهى فيه ويعبر به عن حالاته ومواجهه الصوفية، ورحلته إلى الله وارتقائه إليه وتطهره من النفس/الجسد، عبر مقاطع نصية أسماها بالمواقف، تتدرج ويتراصف بعضها فوق بعض ويؤدي كل منها إلى الذي يليه فنياً ودلالياً من جهة، وخروجاً من حالة الجسد إلى الروح والتطهر بالحب الإلهي والاقتراب من المعرفة واكتشاف الحقيقة من جهة ثانية، يبتدئها بـ"موقف الضحك"، الدال على اللهو والعبث والفرح المجاني المفضي إلى عقوبة من الله، يليه موقف البكاء باعتباره كفارة عن خطيئة الضحك، وهو ما يجعل الله يكافئه بالسفر إليه؛ السفر الذي يستكشف فيه الكثير من العوالم الروحانية، ويتلو ذلك بـ"موقف الجسد" الذي تتصارع فيه الذات مع شهوتها الفانية وتتجرد منها وترفضها بعناء وشدة ومجاهدة، إحالةً إلى المجاهدات والعناء الذي يكابده الصوفي من أجل التطهر والوصول إلى موضوع القيمة المستهدف، يلي ذلك "مقام الروح" في الختام للطبقات النصية التي يتحول فيها الذات من حالتها الأولى المتمثلة في الفقدان، إلى حالتها الثانية المتمثلة في الامتلاك للـ"الحقيقة" «إبتلَّ شخصي بماء الحقيقة»⁽²⁰⁾ بعد أن يتم دفن النفس (الجسد) والانتصار عليها في آخر مراحل الصراع:

«ارتفعت.. أنا

ثم واريئها،

ولمحتُ بقايا شراراتها في ارتعاش العظام»⁽²¹⁾.

بوصوله إلى موقف الروح يصل إلى الحقيقة التي تتكشف له فيها خطاياها وآثامه، ولا ينتهي إلى الاستقرار النهائي برغم امتلاك الحقيقة بل «تباغته همهمات السؤال»⁽²²⁾، وهو عدم الاستقرار الذي يظل هاجساً لدى المتصوفة ما داموا على مبعدة من الذات الإلهية.

إن الرمز الصوفي لا يأتي في ديوان المقالح للتعبير عن الشخصية (الرمز بها)، بل للتعبير بها عن الوجد والصوفي، وعن شغف المتصوف الساعي نحو الخروج من حالة التيه الراهنة إلى حالات الاتساع اللامتناهية،



لكنها لا تكتمل في الديوان إلى عند امتزاجها بالمكان الذي تسكن فيه، لا سمياً حينما يكون هذا المكان رمزاً للشغف نفسه والتوق نفسه على نحو ما سنراه في الآتي.

ب- الرمز المكاني/المكان ملاذا

لا نستطيع أن ندرك الأبعاد الروحية والفنية للمكان في ديوان "أبجدية الروح" إلا إذا أدركنا خلفياته المعرفية، وتاريخه المتعلق بتحوّله من واقعه باعتباره مكاناً طبيعياً إلى واقعه الاستثنائي باعتباره مكاناً صوفياً⁽²³⁾، فقد انتقى المتن أماكن ارتبطت برموز من أقطاب الصوفية الذين تركوا أثراً كبيراً في المشهد الصوفي اليميني في زمانهم، وظل أثرهم ماثلاً إلى اللحظة في تلك الأماكن، فلا يكاد يذكر مكان ما من تلك الأماكن إلا ويذكر معها المتصوفة الذين ارتبطوا بها، كما هو في قصيدتي «في الطريق إلى يفرس»⁽²⁴⁾ و«في يفرس»⁽²⁵⁾. و"يفرس" هو مكان/مقام المتصوف اليميني العارف بالله "أحمد بن علوان"، وهما متلازمان أبداً حضوراً وغياباً، فبحضور يفرس يحضر ابن علوان، والعكس، وبانتفاء حضور أحدهما ينتفي حضور الآخر، إنهما علامتان ثقافيتان متلازمتان فنياً وفكرياً.

تتخذ الذات في النص من هذا المكان مهرباً من تغول المدينة المليئة بالوحشة، وآليات الحضارة بضجيجها وغربة الروح واغترابها فيها، نتيجة انقطاعها عن العالم الروحي، وهيمنة الزيف على جوهرها، وهو ما جعل "يفرس/القرية" تتجلى في النص معادلاً موضوعياً مزدوجاً للروح مقابل الجسد، وللمدينة مقابل القرية، ولمكونات الحضارة مقابل مكونات الطبيعة، إنه يستثمره «للتعبير به عن مدى الحياة الواقعية الراهنة، التي افتقد فيها الشعور بالمعنى والقيم و"الاتصال" و"التواصل"، ومن ثم بالحياة التي تلاشى فيها الشعور ب"الانتماء"، وبالهوية المعنوية، والروحية المتجذرة التي تجعله يستشعر ويحس ويدرك كينونته الذاتية والجماعية الغارقة في سلطة حضارة الأشياء المادية التي بقدر ما أفادت الإنسان المعاصر، صادرت هويته، وأفقدته الشعور بمعنى الكرامة الإنسانية»⁽²⁶⁾.

كما أنه يتمظهر بصفات روحية وروحانية متعددة تكاد تكون "عجائبية" أو لها صفات العجائبي الذي لا نجد له مسوغاً إلا من خلال البعد الصوفي، حتى الذات المتلفظة في النص تبدو مندهشة من كل الصفات والمظاهر التي تحف به، فنجدها لا تعرف على وجه التحديد ماهيتها وما يستتبعها من دلالات:

«أ قرية تلك، أم هي سجادة للصلاة» = دهشة

«قرية هي، أم باحة القلب» = وجدان

«قرية تلك، أم واحة تهجي حروف المحبة» = حب



إن القرية في هذه السياقات الاستفهامية ليست مجرد حيز جغرافي قائم على السكنية المكانية المفرغة من المشاعر، فهي قرية تدهش القارئ، وتدفعه إلى آخر أمداء المحبة، إنها سجادة، وباحة للقلب، وتهجي حروف المحبة، وهي علامات على قيمة المكان نفسياً ومعرفياً وروحياً، إنه مكان للروح، والروح مفتاح المتصوف للكمال.

ولشدة الحضور الروحي في هذا المكان/القرية فإن الذات يتمنى أن يسافر (المكان) إلى الناس، إحالةً على شدة انقطاع الناس في لهوهم عن روح الحياة وانشغالهم بمظاهرها وبهرجها، وبصناعة كوارثهم وحروبهم وموتهم، ففي حين تكون الذات راحلة إلى هذا المكان/يفرس كما يظهر في العنوان، تتمنى الذات لو يقوم المكان بفعل الرحيل إلى الناس؛ لأنهم في حال ابتعادهم عنه غارقون في ثاراتهم وصراعاتهم وخطاياهم الدنيوية، لذلك يدرك أنه المكان الوحيد -ما دامت صفاته تلك- الذي سيتطهرون فيه وبه من خطاياهم، إنه يقترحه حلًا أخيرًا لسُفْيَا الروح والنقاء والوثام النفسي والروحي.

وقد جاء المكان تبعاً لذلك منفتحاً رحباً متحرّكاً غير ثابت، إذ بإمكانه الانتقال ليلاً إلى الشام والصلاة في مكة والجلوس ساعات في حضرة أهل العشق الصوفي، كما أنه يمتلك صفات ترتفع به عن المكان العادي فيغدو مكاناً استثنائياً يزدحم بالضوء والدهشة والبياض، وكلها صفات روحية تكثف النزعة الصوفية له من جهة، وللمتن والذات المتلفظة فيه من جهة أخرى.

النتائج:

يمكن القول إن الخطاب الصوفي يهيمن على المتن أفقياً وعمودياً، وينطلق من العنوان الخارجي مروراً بالعناوين الداخلية، واستقراراً في النصوص، وهو ما يمنحها بعداً شفيفاً يقف على عتبات الروح، ليشعل فيها رغبة البحث والاستكشاف النصيين، ويدفعها إلى العودة صوب الداخل بوصفه مقام استقرار وطمأنينة، والتفلت من إसार الخارج بوصفه مقام قلق وشك وتيه واغتراب طويل.

لقد كان الصراع بين الجسد والروح صراعاً بين النقص والكمال، وصراعاً بين الفاني والمستمر، وبحثاً عن السكنية والاستقرار، وقد عضد ذلك استعمال المدونة للموت بوصفه رمزاً للانتقال إلى عالم الحقيقة المطلقة، وكذلك استعمال الشاعر للرموز الشخصية والمكانية التي أسهمت في تعزيز الرؤية الصوفية في الديوان وكشفت عن البعد الكلي له.

الهوامش والإحالات:

¹ () عبدالعزيز المقالح، ديوانه، دار العودة، بيروت، 1973، 431-443.



- (²) ينظر في تفاصيل ذلك: عبدالله حسين البار، في أسلوبية النص: قراءة في قصيدة هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي، دار عبادي، واتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، ودار حضرموت، 2004، ص 21-22.
- (³) ينظر، عصام واصل، الأفعال الكلامية في ديوان أبجدية الروح، مجلة طلاع اللغة وبدايع الأدب، 1(1)، 2020، 74-98.
- (⁴) عبد العزيز المقالح، أبجدية الروح، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، د. ط، 1998م.
- (⁵) عصام واصل، متخيل السجن في الرواية اليمنية
- (⁶) علي حمود السميحي. (2015). شعرية العتبات في ديوان (انطفاء الألوان) للشاعر العراقي رعد السيفي. مجلة القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية (علمية - دورية - محكمة)، 2(4)، 257-288.
- (⁷) القرني ع. ب. ع. ب. ع. (2025). سيميائية العنوان في ديوان (عندما غنى الجنوب) لفاطمة القرني. الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، 7(2)، 124-153. <https://doi.org/10.53286/arts.v7i2.2539>
- (⁸) ينظر: خالد بلقاسم، أدونيس والخطاب الصوفي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط: 1، 2000م: 130.
- (⁹) ينظر: عثمان بدري، وظيفة العنوان في الشعر العربي الحديث- قراءة تأويلية في نماذج منتخبة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، السنة الحادية والعشرون، العدد الحادي والثمانون، شتاء 2003م: 24.
- (¹⁰) أبجدية الروح: 114-116.
- (¹¹) ينظر: رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط: 1، 1999: 970.
- (¹²) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، د.ت.: 142/16.
- (¹³) واصل، ع. (2023). رواية (بلاد القائد): دراسة في ضوء سيميائية العواطف. مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية، 33(33). <https://doi.org/10.55074/hesj.vi33.840>
- (¹⁴) أبجدية الروح: 21.
- (¹⁵) أبجدية الروح: 21، 22.
- (¹⁶) ينظر: سعاد الحكيم، المعجم الصوفي- الحكمة في حدود الكلمة، دندرة للطباعة والنشر، بيروت، ط: 1، 1981م: 1028.
- (¹⁷) أبجدية الروح: 78، 79.
- (¹⁸) أبجدية الروح: 145، 146.
- (¹⁹) أبجدية الروح: 147.
- (²⁰) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (716-778م)، كان عالما، وفقها، وله مؤلفات في الفرائض والحديث، وكان يلقب بأمر المؤمنين في الحديث، ولد ونشأ في الكوفة ومات مستخفيا في البصرة. ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام- قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج: 3، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 5، 1980م: 104.
- (²¹) أبجدية الروح: 116.
- (²²) أبجدية الروح: 116.
- (²³) ينظر: المصدر نفسه: 118.
- (²⁴) ينظر: عصام واصل، الفضاء الجغرافي في ديوان «أبجدية الروح» تمظهراته وأبعاده الدلالية، مجلة الخطاب، 11(21)، 2016، 153-176. مقام، عصام. (2025). حجاجية التكرار في أدب أحمد بن علوان (ت 665هـ). الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، 7(3)، 222-242. <https://doi.org/10.53286/arts.v7i3.2758>
- (²⁵) ينظر: المصدر نفسه: 103.



²⁵ (المصدر نفسه: 137).

²⁶ (عثمان بدري، وظيفة العنوان...: 29).

المراجع:

- (1) بلقاسم، خالد. (2000). *أدونيس والخطاب الصوفي* (ط.1). دار توبقال للنشر.
- (2) الزركلي، خير الدين. (1980). *الأعلام- قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين* (ط.5). دار العلم للملايين.
- (3) العجم، رفيق. (1999). *موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي* (ط.1). مكتبة لبنان ناشرون.
- (4) الحكيم، سعاد. (1981). *المعجم الصوفي- الحكمة في حدود الكلمة* (ط.1). دندرة للطباعة والنشر.
- (5) الطبري، محمد بن جرير. (د.ت). *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، دار التربية والتراث.
- (6) المقالح، عبدالعزيز. (1973). *ديوانه*، دار العودة.
- (7) عبد العزيز المقالح، أبجدية الروح، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، د. ط، 1998م.
- (8) البار، عبدالله حسين. (2004). *في أسلوبية النص: قراءة في قصيدة هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي* (ط.1). دار عبادي، واتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، ودار حضرموت.
- (9) بدري ع. (2003). *وظيفة العنوان في الشعر العربي الحديث: قراءة تأويلية في نماذج منتخبة. المجلة العربية للعلوم الإنسانية*، 21 (81)، 11-39. <https://doi.org/10.34120/ajh.v21i81.1899>
- (10) واصل، عصام. (2020). *الأفعال الكلامية في ديوان أبجدية الروح، مجلة طلاع اللغة وبدائع الأدب*، 1 (1)، 74-98.
- (11) واصل، عصام. (2016). *الفضاء الجغرافي في ديوان «أبجدية الروح» مظهراته وأبعاده الدلالية، مجلة الخطاب*، 11 (21)، 153-176.
- (12) واصل، عصام. (2025). *متخيل السجن في الرواية اليمنية، مجلة الخطاب*، 20 (1)، 13-48.
- (13) واصل، عصام. (2023). *رواية (بلاد القائد): دراسة في ضوء سيمياء العواطف. مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية*، 33 (33). <https://doi.org/10.55074/hesj.vi33.840>
- (14) السميحي، علي حمود. (2015). *شعرية العتبات في ديوان (انطفاء الألوان) للشاعر العراقي رعد السيفي. مجلة القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية (علمية - دورية - محكمة)*، 2 (4)، 257-288.
- (15) مقام، عصام. (2025). *حجاجية التكرار في أدب أحمد بن علوان (ت 665هـ). الأدب للدراسات اللغوية والأدبية*، 7 (3)، 222-242. <https://doi.org/10.53286/arts.v7i3.2758>
- (16) القرني، عايض. (2025). *سيمائية العنوان في ديوان (عندما غنى الجنوب) لفاطمة القرني. الأدب للدراسات اللغوية والأدبية*، 7 (2)، 124-153. <https://doi.org/10.53286/arts.v7i2.2539>

References

1. Belkacem, K. (2000). *Adonis and the Sufi Discourse* (p. 130). Toubkal Publishing House.
2. Al-Zirikli, K. (1980). *Al-A'lām: Dictionary of Biographies of the Most Famous Men and Women among Arabs, Arabists, and Orientalists* (Vol. 3, p. 104, 5th ed.). Dar al-'Ilm lil-Malain.
3. Al-'Ajam, R. (1999). *Encyclopedia of Islamic Sufi Terminology* (p. 970). Librairie du Liban Publishers.



4. Al-Hakim, S. (1981). *Al-Mu'jam al-Sufi: Al-Hikma fī Hudūd al-Kalima* (The Sufi Dictionary: Wisdom within the Bounds of the Word) (p. 1028). Dandarah for Printing and Publishing.
5. Al-Ṭabarī, M. b. Jarīr. (n.d.). *Jāmi' al-Bayān 'an Ta'wīl Āy al-Qur'ān*. Dar al-Tarbiyah wa al-Turath.
6. Al-Muqaliḥ, 'A. (1973). *His Dīwān* [Collected poems]. Dār al-'Awda.
7. Al-Maqalih, A. (1998). *Alphabet of the Spirit*. General Authority for Books. (n.p., no edition stated).
8. Al-Bār, 'A. Ḥ. (2004). *In the stylistics of the text: A reading in the poem "Yemeni Margins on the Exile of Ibn Zuraik al-Baghdadi"* (ط. 1). Dār 'Abādī; Union of Yemeni Writers and Authors; Dār Ḥaḍramawt.
9. Badri, A. (2003). Function of the Title in Modern Arabic Poetry: Reading Selected Examples. *Arab Journal for the Humanities*, 21(81), 11–39. <https://doi.org/10.34120/ajh.v21i81.1899>
10. Wasel, E. (2020). Speech Acts in the collection poems: Abgadeyat Al-Rroh "Alphabet of the Spirit". *Ṭilā' al-Lughah wa Badā'i' al-Adab*, 1(1), 74–98.
11. Wasel, E. (2016). Geographical space in the collection "The Alphabet of the Soul": its manifestations and semantic dimensions. *Al-Khiṭāb Journal*, 11(21), 153–176.
12. Wasel, E. (2025). The Prison Imaginary in Yemeni Novels. *Al-Khiṭāb Journal*, 20(1), 13–48.
13. Wasel, E. (2023). Novel Belad Al-Qaied (The Commander's Country) A study in light of the semiotics of emotions. *Humanities and Educational Sciences Journal*, (33). <https://doi.org/10.55074/hesj.vi33.840>
14. Al-Samḥī, 'A. H. (2015). The poetics of thresholds in Ra'd Al-Sayfi's poetry collection *Extinguishing of Colors*. *Al-Qalam Journal for Human and Applied Sciences*, 2(4), 257–288.
15. Maqam, E. (2025). The Argumentative Function of Repetition in the Literature of Ahmad bin Alwan (d. 665 AH). *Arts for Linguistic & Literary Studies*, 7(3), 222–242. <https://doi.org/10.53286/arts.v7i3.2758>
16. Al-Qarni, A. B. A. B. A. (2025). The Semiotics of the Title in the Poetry Collection When the South Sang by Fatima Al-Qarni. *Arts for Linguistic & Literary Studies*, 7(2), 124–153. <https://doi.org/10.53286/arts.v7i2.2539>